الباب الثالث

انتصار المنهج الفلسفي

(كل من بلغته دعوة محمد ﷺ إلى دين الله فلم

يستجب له فإنه يجب قتاله)

ابن تيمية

في هذا الباب فصول أربعة تتأخى بيان صور مصغرة لبعض ثمار الدعوة والأرض التي أينعت فيها والفروع التي غذتها واغتذت بها، لتستبين مكانة الإمام بين أئمة الإسلام، وكيف أمست المبادئ من بعده عقائد يدين بها ويدافع عنها ذلك النسق النضيد المتتابع من رجال الإصلاح في كل أقطار الإسلام، على مدار القرنين اللذين أعقبا موت الإمام، ليدلنا ذلك على صدورها من صميم الإسلام واقتدارها على إصلاح حال المسلمين في كل عصر، شأن الحنيفية السمحة ذاتها، ومن ثمة يكتب للمبادئ الخلود.

وفي الفصل الأول بيان لمشروعية الجهاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام المسلمين بأن يحملوا السيف دفاعًا عن عقيدة التنوحيد.

والفصل الثاني سرد بالغ الوجازة للملحمة البطولية التي خاضها أبطال الدعوة من أمراء آل سعود وجماعة المسلمين معهم ليهبوا أمة الإسلام "دولة الإسلام" المتمسكة به، المدافعة عنه، مستيقنة أن الزمان في خدمتها، وإن اعتورتها هزائم السياسة أو نكسات الساعة.

ولما دمر الأتراك عاصمتها في الدرعية صيرت عقدية التوحيد معارك الدمار معالج للانتصار.

وعندما تصاب الجيوش وتسلم إرادات الرجال فالنصر مسألة زمن.

والفصل الثالث يبين كيف أقام المنهج السلفي للدولة العصرية، الحاملة مسئوليات المسلمين في فلسطين، الجاعلة سلاح البترول قوة ضاربة للمسلمين في كل مكن، وكيف أثبت وفاء قواعد الإسلام بحاجات العصر وقابلية الوسائل على التطور واقتدار الرجال الصلب الشداد على الصدع بالحق وقيادة المسلمين إلى النصر.

وفي الفصل الأخير بيان لمبلغ ما تضافرت الأجيال وتآزرت الشعوب والقارات في اقتفاء آثار الإمام تقودهم، على طريقته، نخبة من الرجال كان كل منهم أمل أمته وما يزالون يهدونها السبيل.

وفي ختام الكتاب تذكير بالمنهج العلمي العالمي الذي أوصل الإنسان إلى القمر، والذي تضرب جذوره في أصول الفقه الإسلامي المستمدة من القرآن والسنة، والقائمة على العلم والواقعية والموضوعية، لا الباطنيات ولا الغيبيات أو الشطحات، وتذكير بمنهج الإسلام الاقتصادي والاجتماعي وهو عمارة الدنيا بعمارة الإنسان، بفضائل الدين.

والمسلمون اليوم يقفون بين حضارتين تحتاجان إلى أن ينقذهما الإسلام.

obeikandl.com

الفصل الأول

الجهاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها

ويصام نهارها)

حديث شريف

الاجتهاد والجهاد أمر بالمعروف وعمل به، يبذل الوسع لإعلان حكم الله وإعلاء كلمة الإسلام دون خضوع لسيطرة الغير على الفكر أو النفس. وكلاهما جهد يبذل في صراع التنازع على البقاء بحماية عقيدة تعلن حرية النفس والفكر والعدل والمساواة الفطرية بين الناس والعبودية لله وحده.

وعلى قدر إيمان المسلم يكون جهاده في سبيل دينه. بحرب يخوضها أو سلم تعمر به الدنيا على يده أو علم يعلمه أو يتعلمه، أو يجتهد عند الضرورة، ليؤمن عن وعي شخصي ولا يقلد غيره ولا يكون إمعة.

وما شق محمد بن عبد الوهاب طريقه بالجهاد والاجتهاد كان يسلك مسلك السلاف، ويعيد الناس إلى الجادة ليدافعوا عن دينهم، ويستثمروا أعظم ما منحه الله لهم وهو العقل.

يذكر الشيخ المسلمين في باب (تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله قول الله تعالى في الزخرف ٢٦: وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إني براءٌ مما تعبدون).

وقوله في البقرة ١٦٥: ﴿ **وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ** ﴾ ويعقب على الآية الكريمة بالسنة الشارحة ليبين فرضية جهاد المسلم للعدو.

(وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرام ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل) ثم يقول بعد شرح طويل: (وهذا – الحديث من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل تحريم ماله ودمه، حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم دمه وماله.

فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمتنازع) وفي أكثر من موضع يذكر الشيخ ما يذكره في كتاب الكلمات النافعة والمكفرات الواقعة: (إن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط القتال، وإنهم يقاتلون قتال كفر وخروج عن الإسلام).

وعندما تهن عقيدة المسلم يخوى قوامه، كوعاء العطر إذ ينفض فدامه، فيتبدد ما فيه. وكذلك ملاك الجماعة إذا وهنت عقائد الرجال. فيسر انحرافها عن الجادة وانصرافها إلى أي بدعة تجعل العبادة مظهرًا لا حقيقة له أو طقسًا تزينه أخيلة الناس لأنفسهم، ليكتفوا بالشكل عن المضمون. والصورة عن الحقيقة. يقول ابن عقيل:

"لما وضعت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. وهم عندي كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج".

وإذا أعاد الأمر بالمعروف الجماعة إلى الرشاد فيها ونعمت، وإذا أصرت على الكفر فقتالها واجب:

يقول (ابن تيمية) إذ سئل عن قتال التتار مع زعمهم إتباع أصل الإسلام: (كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا بشرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة حتى يكون الدين كله لله، وحتى لا تكون فتنة. وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم) وقال: (فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر أو نكاح المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عُذر لأحد في جحودها أو تركها – التي يكفر الواحد بجحودها– فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليه وإن كانت مقرة بها. وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء...) وقال: وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابها على الله) وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله).

وقد أجمع العلماء أن من قال لا إله إلا الله ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات.

وقال أبو سليمان الخطابي رحمه الله قوله: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله): المراد بهذا أهل عبادة الأوثان دون أهل الكتاب....).

ويقول ابن تيمية في "السياسة الشرعية": (فكل من بلغته دعوة محمد ﷺ إلى دين الله الذي بُعث به فلم يستجب له فإنه يجب قتاله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله...)

(والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحضر؛ ولذلك كان أفضل ما تطوع به الإنسان، وكان باتفاق العلماء، أفضل من الحج والعمرة ومن الصلاة والتطوع والصوم التطوع، كما دل عليه الكتاب والسنة حتى قال النبي ﷺ (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد). وقال: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه) وفي مسند الإمام أحمد: (حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها).

وفي الصحيحين: (أن رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بشيء يعادل الجهاد في سبيل الله، قال لا تستطيع، قال: أخبرني. قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفطر وتقوم لا تفتر؟ قال: لا، قال: فذلك الذي يعدل الجهاد).

ومن الباب ذاته يقول: (كما أن العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات وترك المحرمات فقد شرع أيضًا كل ما يعين على ذلك. فيجب تيسير طريق الخير والطاعة والإعانة عليه والترغيب فيه بكل ممكن).

والقتال على هذا النحو جهاد أمر الله تعالى به وليس مجرد أمر بالمعروف أو نهي عن المنكر [٧٨]. والسكوت عن المنكرات أمر لا يغتفر، والسكوت على المكفرات أبعد من العُذر،

---

(٧٨) يقول الرسول عليه الصلاة والسلام (من رأى منكم منكرًا فليغير، بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

ويرتب ابن حزم على كون الإنكار بالقلب أضعف الإيمان نتيجة ذات بال هي أن من لم ينكر بقلبه لا إيمان له وهو معنى بالغ في الدقة يدني من الكفر كل من لا يستنكر الفكر فيستبين به في دخيلة نفسه.

وأدعى للعقاب. وبخاصة لمن زاد علمًا أو عبادة أو زهادة. رووا عن الإمام أحمد وغيره أثرًا أن الله تعالى أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا كذا. فقال: يا رب، كيف وفيهم فلان العابد؟ قال: به فابدأ، فإنه لم يَتَمَعَّر وجهه فيّ قط.

وروا أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبيائه قل لفلان الزاهد: "أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة، وأما انقطاعك إلي فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يا رب، وأي شيء لك علي؟ قال: هل واليت فيَّ وليًا أو عاديت في عدوًا؟".

ولما سئل عليه الصلاة والسلام: أي العمل أفضل قال: (إيمان بالله ورسوله) قيل ثم ماذا؟ فأجاب: (الجهاد في سبيل الله).

* * *

والشيخ عامل بالدين لا مجرد عالم أو عابد أو زاهد، ومن عمله بالدين كان الجهاد.

فالصحابة حاربوا المرتدين لمجرد امتناعهم عن الزكاة مع أنهم يشهدون شهادة التوحيد كما أسلفنا عنه في مختصر سيرة الرسول أو كما يقول في كتاب الكلمات النافعة والمكفرات الواقعة محتجًا بعمل الصحابة:

(ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء جعل ظهره إلى جوار القبر، ثم دعا.....

فيقول أهل البدع والشرك قولاً غير الذي قيل لهم، فبدلوا الدعاء بدعائه نفسه والشفاعة له بالاستشفاع به، والزيارة التي شرعت إحسانًا إلى الميت إلى الزيارة بسؤال الميت، والإقسام به على الله، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد. وقد أنكر الصحابة ما هو دون ذلك بكثير، فقطع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشجرة التي بويع رسول الله ﷺ تحتها، ولما رأى عمر الناس يذهبون.. سأل عن ذلك، فقيل: مسجد صلى فيه رسول الله يصلون فيه. فقال: إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا. كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا. فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها.

والمسلمون على أن الإنكار بالقلب يجب أن يكون بالكراهية الكاملة التي يشهدها الله تعالى من قلب المنكر.

وقد أنكر رسول الله ﷺ على الصحابة لما سألوه شجرة يعلقون عليها أسحلتهم... وهذه الأمور المبدعة عند القبور أنواع:

(أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجة كما يفعله كثير، وهؤلاء من جنس عباد الأصنام...

والنوع الثاني أن تسأل الله به، وهذا يفعله كثير من المتأخرين وهو بدعة إجماعًا.

والنوع الثالث أن يظن أن الدعاء عنده مستجاب وأنه أفضل من الدعاء في المساجد، فيقصد القبر لذلك، فهو أيضًا من المنكرات إجماعًا وإن كان كثيرًا من المتأخرين يفعله ومن هؤلاء ومن يرجح الحج إلى المقابر على الحج إلى البيت فيقول أحدهم: إنك إذا زرت قبر الشيخ مرتين أو ثلاثًا كان كحجة، ومن الناس من يجعل مقبرة الشيخ بمنزلة عرفات يسافرون إليها وقت الموسم).

والشيخ ينقل من صحيح البخاري عن أم الدرداء: (دخل عليّ أبو الدرداء فقلت: مالك؟ فقال والله ما أعرف منهم شيئًا من أمر محمد ﷺ إلا أنهم يصلون جميعًا).

وإذا كان ذلك شأن أبي الدرداء، في عهد الصحابة – فما بالك بالمسلمين بعد أحد عشر قرنًا حيث أصبح الكثيرون منهم على هامش الإسلام، ومنهم من يلحدون وهم لا يشعرون أو يشعرون.

ولم يكن لهم معدى عن صدمة كهربية تنجيهم من ثقالة الدجاجلة، وتوقظهم من سبات كأنه الموات في عقولهم، تحدثها فيهم جماعة حق مسلمة علمها الشيخ حقائق التوحيد، وأن الموت في سبيله حياة. وضرب لها الأمثال في الكثير من فعل الرسول أو قوله عليه الصلاة والسلام مثل: (اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف). وقوله:

(من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما على النار) وقوله: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله) وقوله ﷺ: (رباط أحدكم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)، ويقودها أمير جادت به السماء فكان بحيث قال عليه الصلاة والسلام: (إنما الإمام جنة، يقاتل من ورائه ويتقي به) يقتفي آثاره ﷺ، كما قال علي:

(كنا إذا حمى اليأس اتقينا برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو).

ويا له من مثل أعلى في السيرة العطرة. ومن نجاح محقق للأسلحة المحاربة، إذ يذكر الشيخ رجالها وأمراءها ما يرويه الواقدي: (أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى صارت شظايا... وباشر القتال فرمى النبل حتى فنيت نبله وتكسرت سية قوسه. وقبل ذلك انقطع وتره، وبقيت في يده قطعة تكون شبرًا في سِية القوس).

هكذا ارتبطت دعوة الشيخ بالدرعية وأميرها وجندها، وأمست دعوة ابن عبد الوهاب ودولة ابن سعود وحدةً لا تقبل التجزئة، وأصبحت الدعوة للدين الصحيح قانون الدولة وسبب وجودها. تموت إذا لم تعمل به وتحيا وتقوى قدر ما تعمل له، وغدت الحروب ضرورة للدفاع. ومن الهجوم وسائل دفاع.

* * *

هنالك كان الأمير كفئًا للشيخ، ولما تكافأ الشريكان بلغت الدعوة غرضها، بالجماعة التي تعبد الله عن فهم، فتُستشهد عالمة أن مواقع المعارك كمجالس الدروس كلها طرق إلى الله. ومن ذلك كانت المعارك والبطولات كالعبادات.

وكان أعظمها وأدماها "معارك الدرعية" في نجد وما جاورها مع "الرياض" وأميرها على مر السنين:

بدأت المعارك بعد سنة من بيعة الأمير للشيخ، ثم أصبحت حريملا والعيينة والدرعية محورًا لتحالف ثلاثي من المؤمنين بمبادئ محمد بن عبد الوهاب. يتعاظم أمره يومًا فيومًا، ويتبادر الناس آحادًا أو ثباتٍ أو أفواجًا إلى الدرعية فإما استقروا في جوار الشيخ، وإما رجعوا إلى أقوامهم يدعون للدين الصحيح، ويزرون بما يمارسونه من بدع منفرة أو مكفرة.

فالذين يقومون في جواره كهيئة أهل الصفة في جوار الرسول إيمانًا واحتسابًا ودربة وأهبة للقاء العدو. والذين يعودون أدراجهم ليسوا أقل تأثيرًا في نشر الدعوة وإصلاح العقيدة.

وطوت أبناء الدعوة هضاب نجد ووديانها، فكان لزامًا أن يتألب عليها شرار الأمراء والأدعياء من المسمين بالعلماء، والمرتزقة من سوق "الكرامات" وصناديق النذور عند القباب والأنصاب والمغارات، ومن أحاييل السحرة وأعاليل الكهان، وأضاليل المتعالين. فلقد كانت كل هذه الضلالات غذاءً يوميًا للناس في المجتمع. ولا شفاء لداء الكفر إلا السيف.

كانت المعارك الأولى مع الرياض سنة ١١٥٩هـ، ١٧٤٦م لكن الحروب لم تلبث أن اشتعلت في أنحاء نجد وأطرافها على مدى أعوام عشرين حتى إذا مات محمد بن سعود سنة ١٧٧٩ ولي ابنه عبد العزيز فتابع أعماله الحربية على رأس الجيش إما بنفسه أو بقيادة ابنه سعود – والعرب تسميه سعودًا الكبير – وفي سنة ١١٨٧ توجت الانتصارات بالاستيلاء على مدينة الرياض بعد نحو عشرين عامًا من المعارك. وتعاقبت أيام المجد بعد فتح الرياض:

فالجيش في سنة ١١٨٨ يغزو بلاد الدلم وينازل قبائل "وادي بني حنيفة" قريبًا من الخرج في قتال مرير. وينتقل ضرمة إلى سدير والخرج والمجمعة حتى إذا كانت سنة ١١٩٥ دخل قرية "اليمامة" وفي سنة ١١٩٦ دخل القصيم.

وفي سنة ١١٩٨ غزا إقليم الأحساء، وفي سنة ١١٩٩ عاد يغزو الخرج، ثم انطلق في سنة ١٢٠٢ إلى إقليم قطر في مقابل البحرين.

وفي سنة ١٢٠٢ أمر الشيخ بالبيعة لسعود بولاية العهد، فالشيخ يحتضن الدعوة ويحنو على الشباب، ويرنو إلى المستقبل.

وشهد عام ١٢٠٢ تطورًا في تاريخ الحروب، فلم يكن صوت الدعوة أو صيت أسلحتها في شرق جزيرة العرب إلا تهديدًا شديدًا للأتراك وأشياعهم، فأقبلت إلى نجد قوة حربية جديدة بأسلحة لم يألفها العرب يقودها شريف مكة عدتها عشرة آلاف ومعها عشرون مدفعًا تركيًا.

والتحم الجيشان. فكان المغيرون ينهزمون وأهل نجد يلهبون ظهورهم ويغذون السير في آثارهم، وكانت نهاية جيوش مكة في وقعة العدوة.

ودخل الجيش السعودي. مكة وأمر بتدريس كتاب "كشف الشبهات" للشيخ في الحرم، وكان الشيخ يدق أبواب التسعين من عمره، فكان دخوله مكة بُشريات للجنة.

لكن مكة في أرض الطبيعة الإسلامية بداية لا نهاية، فمنها خاطب صاحب الرسالة الوجود الإنساني كله وأصغت الأسماع لمبادئها مرحلة بعد مرحلة، بالهجرة، وبالسرايا والغزوات والفتح المبين.

ولذلك لم تهن عزمات الشيخ ولا جيوش عبد العزيز. فهو في عام ١٢٠٤ يغزو الأحساء، ثم يعود ليغزو الأحساء والقصيم سنة ١٢٠٧، وفي سنة ١٢٠٨ ثقيف وجبيل وفي سنة

١٢٠٩ الخرج وفي سنة ١٢١٠ سارت الجيوش إلى قرى الحجاز تهزم جيش الشريف ناصر بالجمانية.

* * *

وفي سنة ١٢١١ أعاد التاريخ نفسه بمكة، فأنفذ الشريف غالب رسلاً إلى عبد العزيز يطلب علماء للمناظرة كما يروي ابن غنام فبعث إليه... وجرت المناظرة في مسألة قتال الموحدين للناس، ودعوة الأموات فكان حمد بن ناصر (تلميذ الشيخ) مبعوث عبد العزيز – يأتي بالدليل القاطع من كتاب الله وأجاديث الرسول، فاضطرهم للتسليم في المسألة الأولى، أما ما نسب إليهم من الشرك فقد قال فيه كبيرهم لحمد بن ناصر: (إني لا أطالبك بما قاله علماء المذهب سوى ما قاله لي إمامي أبو حنيفة؛ لأني "مقلد" فيما قال فلا أسلم لسوى قوله – ولو قلت: قال رسول الله أو قال ذو الجلال – لأنه أعلم مني ومنك بذلك). وطلب منه حمد بن ناصر تأصيل براهينه وحججه فعجز. وكتب حمد بن ناصر في ذلك رسالة مفيدة.

وكان اعتذار عالم الحجاز من التقليد عن غير فهم قبيحًا قبح الذنب ذاته، لكنه كان صريحًا في أسباب مرائه ومحال نظرائه.

وفي سنة ١٢١٢ هبط نابليون بونابرت بجيش فرنسي أرض مصر ليثب منها إلى الهند، فيضرب إنجلترا في موقع القلب من رقعتها العالمية. وإذ كانت جيوش عبد ا لعزيز تسيطر على الجزيرة العربية فقد أرسل "نابليون" بعثة برياسة "لاسكاري" للاتفاق على محاربة الأتراك. لكن الذي حدث أن قوة من ألفي مقابل بقيادة الشريف حسن – كما يروي الرافعي – وبقيادة علي الكيلاني – كما يروي الجبرتي في حوادث سنة ١٢١٣ – عبرت البحر الأحمر من الحجاز إلى القصير بصعيد مصر وانضم إليها عرب الهوارة من أهل الصعيد والمغاربة والترك والمصريين فحاربوا الفرنسيين في مناطق الصعيد – القصير – جرجا – المنيا – وهذا أول إرهاص في التاريخ الحديث بالوحدة العربية أمام غزو أوروبي.

وفي سنة ١٢١٤، سنة ١٢١٥ حج سعود بن عبد العزيز حجته الأولى والثانية مما يدل على أن الحجاز قد أصبح سلمًا له ولأبيه.

واستعدى أشراف مكة مرة أخرى سلطان تركيا لحمايتهم، منبهين على خطر الدعوة الوهابية على الأتراك.

وفي سنة ١٢١٩ (١٨٠٤) غزا الأمير سعود الكويت، وأقام جيشه أيامًا بقرية الجهرة، وهي الآن جزء من مدينة الكويت، وعرض الإنجليز على أمير الكويت حمايتهم، فأبى الأمير حفاظًا على استقلاله.

* * *

كان طبيعيًا بعد أن استقر أمر الجزيرة العربية، أن تسير الفتوح السعودية سيرة الفتوح الإسلامية؛ ولهذا رأينا الدولة الفتية من فاتحة القرن الهجري تنطلق من نجد وتتجه إلى الشمال والشرق: في العراق والشام – نفس المنطلق والاتجاه اللذين سارت عليهما في عصر الخلفاء الراشدين وبالترتيب ذاته: الجزيرة العربية أولاً، ثم أرض العرب في العراق ثم في الشام.

أما العراق فقد استعرت أنظار السعوديين إليه كثرة المزارات والأضرحة والقباب التي يقيمها الشيعة، ويعتبرها السعوديون إحياء للوثنية؛ ولذلك أرسل عبد العزيز إلى الوالي التركي على العراق نسخة من كتاب (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) وطلب منه أن يجمع علماء بغداد للنظر فيما جاء بالكتاب والعمل بما جاء فيه.

وأسند الوالي دراسة الكتاب إلى أحد العلماء، وقدم العالم تقريرًا للوالي يقول فيه: (فبعد أن طالعناه وفهمنا فحواه وجدناه كتابًا جامعًا لشتات المسائل مشتملاً على عدة رسائل لكنه قد جمع بين غث وسمين وقوى ووهين، ووجدنا أحواله أحوال من عرف من الشريعة شطرًا ولم ينعم فيها نظرًا، ولا قرأ على أحد ممن يهديه إلى النهج القويم، ويدله ويوفقه على العلوم النافعة التي هي الصراط المستقيم).

واستمر التناوش من قريب وبعيد، فأخذ الوالي التركي في تأليب القبائل العربية لمناجزة أهل نجد فصنعت، ورد سعود عدوان العراق باقتحام حدوده سنة ١٢٠٣ (١٧٨٨) وتأديب قبائله.

وفي سنة ١٢٠٩ = ١٧٩٤ قاد سعود غزوًا ضد بني ظافر في أرض العراق، فغنم كثيرًا من المال، وفي سنة ١٢١٠ (١٧٩٥) وصلت العلميات الحربية السعودية إلى ضواحي البصرة.

وأصدر السلطان العثماني أمره إلى والي البصرة ليغزو الأراضي السعودية، واتجهت حملة عراقية إلى الدرعية، فقتل قائدها بين جنده... وردت الدرعية بهجوم الأمير سعود على القبائل بوادي شمر وغيرها فوصل إلى منطقة السماوة.

وأدرك الوالي التركي أنه لا معدى له عن الحرب الشاملة مع الدولة السعودية، فبدأ بتوجيه جيشه إلى الأحساء حيث للشيعة قوة لا يستهان بها، وصمد السعوديون فلم يحقق أهدافه الحربية، ورجع جيشه أدراجه بعد أن أوقد الفتنة في نفوس الشيعة، فقتلوا من ظفروا به من رجال الدولة السعودية، فشن السعوديون هجومًا خاطفًا على المزارات الشيعية وهدموها في عشرين أبريل سنة ١٨٠١ (١٢١١هـ) وظهر الأمير سعود فجأة أمام مدينة كربلاء (المدينة المقدسة لدى الشيعة)، فهدم مشاهدها، وأزال القبة المرفوعة على قبر الحسين رضي الله عنه، وقتلت قواته كثيرين من أهل كربلاء، ورجعت بما في المشهد الحسيني من مجوهرات ومصاحف ثمينة مهداة من الملوك ومن الشيعة في الهند وإيران وغيرها.

واشتعلت النار في قلوب الشيعة، فدخل على عبد العزيز بن سعود في سنة ١٢١٨ – ١٨٠٣ رجلٌ في زي الدراويش فقتله، وهو في السادسة والثمانين، فبويع لابنه سعود.

واستمرت الدولة السعودية في تسيير حملاتها إلى مدن العراق عامًا بعد عام تجوس خلال الديار، وتداهم كربالاء.

وفي سنة ١٢٢٣ = ١٨٠٨ بلغ الجيش السعودي في غزواته قريبًا من بغداد.

* * *

أما الشام ومصر فكان مقدم حجيجهما متخذًا كل مظاهر الاستعلاء التركي على مصر والشام والحجاز، وطقوسًا لا يجيز بدعتها السعوديون – كافيًا لإشعال نار الخصام.

فمنع الأمير سعود في سنة ١٢٢١١ – ١٨٠٦ أمير الحج الشامي عبد الله باشا من الوصول إلى الحرمين، واكتفى السلطان في القسطنطينية بعزل الباشا، وولى مكانه يوسف باشا كنج وأصدر إليه الأوامر بغزو الدولة السعودية، فكان يزداد مطالاً كلما زاده استعجالاً. إذ لا حول له ولا طول:

وفي الوقت ذاته كان سعود يبعث إلى أهل الشام جيشًا بعد جيش ليدخلوا في طاعته، وكان يرسل سراياه إلى داخل البلاد، ولكن استغلال الأتراك لمنع الحجيج ثبط أهل الشام ومصر عن الدخول في دعوة سعود.

أخذت الدولة تستقر والدعوة تنتشر، والأمير سعود يتابع الحج عامًا بعد آخر، حتى اكتملت له حجات خمس سنة ١٢٢٣، وكسا الكعبة وعمت الدعوة جزيرة العرب بما فيها

الحجاز، وانطقعت الموبقات وامتنعت البدع، وعم نقاء الاعتقاد وإخلاص الدين لله جزيرة العرب، حتى التدخين امتنع من الطرقات لما فيه من بدعة ضارة [٧٩] وأرسل سعود سراياه إلى بعيد تعلم الناس التوحيد في عمان ثم في اليمن وعسير وتهامة والهاتف. وبلغ جيشه النظامي خمسين ألفًا.

ومنذ عام ١٢٢٣ لم يخرج إلى مكة حجيج مصر والشام والعراق والمغرب.

وفي عام ١٢٢٣ [٨٠] سير سعود جيوشه إلى عمان وناصرت السفائن الإنجليزية أهل عُمان ضد جيوش سعود.

وفي سنة ١٢٢٥ سارت الفيالق إلى البحرين في الجنوب الشرقي وإلى المزة في الشمال بسورية، ودانت أطراف جزيرة العرب لسعود. وحج حجته السابعة واحتفلت به رعيته، وخُطب له في حجيج مكة، وأهدى شريف مكة إليه هداياه رمزًا للخضوع لسعود (الكبير).

---

(٧٩) ظهر الآن ما يعتبر شهادة للمنهج الوهابي في تحريم الدخان، فأصبحت الحكومات الأوربية، والحكومة المصرية تحذر الناس رسميًا الإصابة بالسرطان ومرض القلب من جراء الدخان وهما أخطر الأمراض في العصر الحاضر.

(٨٠) ي هذا العام توفي حسين بن الغنام واضع كتاب تاريخ نجد. وهو أصدق المراجع لذلك التاريخ، فهو تلميذ الإمام محمد بن عبد الوهاب وقد كلفه الشيخ وضعه. يقول في مقدمته: (أردت أن أصنف فيما أشرق ضياؤه وشاع في غالب الأقطار واشتهر من الغزوات التي هي في مجد الدهر كالغير... والإمام أيده الله يعزم على في ذلك ويشير... فشرعت فيه حتى أتقنته....)